الفَصْلُ الخَامِسُ

عجائب الطيور

الحكمة الربانية في خلق جسم الطائر:

ثم تأمل جسم الطائر وخلقته فإنه حين قدر بأن يكون طائرًا في الجو خفف جسمه وأدمج خلقته واقتصر به من القوائم الأربع على اثنتين ومن الأصابع الخمس على أربع ومن مخرج البول والزبل على واحد يجمعهما جميعًا، ثم خلق ذا جؤجؤ[١] محدود ليسهل عليه اختراق الهواء كيف توجه فيه كما يجعل صدر السفينة بهذه الهيئة ليشق الماء بسرعة وتنفذ فيه، وجعل في جناحيه وذنبه ريشات طوال متان لينهض بها للطيران وكسى جسمه كله الريش ليتداخله الهواء فيحمله.

ولما قدر أن يكون طعامه اللحم والحب يبلعه بلعًا، بلا مضغ نقص من خلقه الأسنان وخلق له منقار صلب يتناول به طعامه، فلا يتسحج[٢] من لقط الحب ولا يتعفن من نهش اللحم.

ولما عدم الأسنان كان يزدرد الحب صحيحًا واللحم غريضًا[٣] أعين بفضل حرارة في الجوف تطحن الحب وتطبخ اللحم، فاستغنى عن المضغ، والذي يدلك على قوة الحرارة التي أعين بها أنك ترى عجم الزبيب وأمثاله يخرج من بطن الإنسان صحيحًا وينطبخ في جوف الطائر حتى لا يرى له أثر. ثم اقتضت الحكمة أن جعل يبيض بيضًا ولا يلد ولادة؛ لئلا يثقل عن الطيران، فإنه لو كان مما يحمل ويمكث حمله في جوفه حتى يستحكم ويثقل لأثقله وعاقه عن النهوض والطيران.

(١) هو: مجتمع رؤوس عظام الصدر.

(٢) أي: لا يخدش.

(٣) أي: طريًا.

obeikandl.com

وتأمل الحكمة في كون الطائر المرسل السائح في الجو يلهم صبر نفسه أسبوعًا أو أسبوعين باختياره قاعدًا على بيضه حاضنًا له ويحتمل مشقة الحبس ثم إذا خرج فراخه تحمل مشقة الكسب وجمع الحب في حوصلته ويزقه فراخه وليس بذي روية ولا فكرة في عاقبة أمره ولا يؤمل في فراخه ما يؤمل الإنسان في ولده من العون والرفد وبقاء الذكر. فهذا من فعله يشهد بأنه معطوف على فراخه لعلة لا يعلمها هو ولا يفكر فيها من دوام النسل وبقائه.

التأمل في خلق البيضة:

ثم تأمل خلق البيضة وما فيها من المح الأصفر الخاثر[١] والماء الأبيض الرقيق- فبعضه ينشأ منه الفرخ وبعضه يغتذى منه إلى أن يخرج من البيضة- وما في ذلك من الحكمة فإنه لما كان نشوء الفرخ في تلك البشرة المنخفضة التي لا نفاذ فيها للواصل من خارج جعل معه في جوف البيضة من الغذاء ما يكتفي به إلى خروجه[٢].

حويصلة الطائر:

وتأمل الحكمة في حوصلة الطائر وما قدرت له فإن في مسلك الطعام إلى القابضة ضيق لا ينفذ فيه الطعام إلا قليلًا، فلو كان الطائر لا يلتقط حبة ثانية حتى تصل الأولى إلى جوفه لطال ذلك عليه فمتى كان يستوفي طعامه وإنما يختلسه اختلاسًا لشدة الحذر، فجعلت له الحوصلة كالمخلاة المعلقة أمامه ليوعى فيها ما ازدرد من الطعم بسرعة ثم ينفذ إلى القابضة على مهل وفي الحوصلة أيضًا خصلة أخرى فإن من الطير ما يحتاج إلى أن يزق فراخه فيكون رده الطعم من قرب ليسهل عليه.

---

(١) المحُّ بالحاء صفار البيض، الخاثر شديد الحموضة أو المذاب.

(٢) مفتاح دار السعادة (١/ ٣٧٦-٣٧٧).

الألوان العجيبة في ريش الطيور:

ثم تأمل هذه الألوان والأصباغ والوشى التي تراها في كثير من الطير كالطاووس والدراج وغيرهما التي لو خطت بدقيق الأقلام ووشيت بالأيدي لم يكن هذا فمن أين في الطبيعة المجردة هذا التشكيل والتخطيط والتلوين والصبغ العجيب البسيط والمركب الذي لو اجتمعت الخليقة على أن يحاكوه لتعذر عليهم؟

فتأمل ريش الطاووس كيف هو فإنك تراه كنسج الثوب الرفيع من خيوط رفاع جدًا قد ألف بعضها إلى بعض كتأليف الخيط إلى الخيط، بل الشعرة إلى الشعرة، ثم ترى النسج إذا مددته ينفتح قليلًا قليلًا ولا ينشق ليتداخلها الهواء، فينقل الطائر إذا طار فترى في وسط الريشة عمودًا غليظًا متينًا قد نسج عليه ذلك الثوب التي كهيئة الشعر ليمسكه بصلابته وهو القصبة التي تكون في وسط الريشة وهو مع ذلك أجوف يشتمل على الهواء، فيحمل الطائر، فأي طبيعة فيها هذه الحكمة والخبرة واللطف.

ثم لو كان ذلك في الطبيعة -كما يقولون- لكانت من أدل الدلائل وأعظم البراهين على قدرة مبدعها ومنشئها وعلمه وحكمته فإنه لم يكن ذلك لها من نفسها، بل إنما هو لها ممن خلقها وأبدعها فما كذبه المعطل هو أحد البراهين والآيات التي على مثله يزداد إيمان المؤمنين. وهكذا آيات الله يضل بها من يشاء ويهدي من يشاء.

إعطاء الله لكل طائر ماينا سبه

طول الساقين:

تأمل هذا الطائر الطويل الساقين واعرف المنفعة في طول ساقيه فإنه يرعى أكثر مرعاه في ضحضاحٍ من الماء فتراه يركز على ساقيه كأنه ربيئة فوق مرقب[1] ويتأمل ما دب في الماء فإذا رأى شيئًا من حاجته خطا خطوًا رفيقًا حتى يتناوله ولو كان قصير

(١) أي فوق موضع محالٍ.

القائمتين كان إذا خطا نحو الصيد ليأخذه لصق بطنه بالماء، فيثيره ويذعر الصيد منه فيفر فخلف له ذلك العمودان ليدرك بهما حاجته ولا يفسد عليه مطلبه.

وكل طائر، فله نصيب من طول الساقين والعنق ليمكنه تناول الطعم من الأرض ولو طال ساقاه وقصرت عنقه لم يمكنه أن يتناول شيئًا من الأرض وربما أعين مع عنقه بطول المناقير ليزداد مطلبه سهولة عليه وإمكانًا...

الحكمة من سعي العصافير:

ثم تأمل هذه العصافير كيف تطلب أكلها بالنهار كله، فلا هي تفقده ولا هي تجده مجموعا معدًا، بل تناله بالحركة والطلب في الجهات والنواحي فسبحان الذي قدره ويسره كيف لم يجعله مما يتعذر عليها إذا التمسته ولا مما يفوتها إذا قعدت عنه وجعلها قادرة عليه في كل حين وأوان بكل أرض ومكان حتى من الجدران والأسطحة والسقوف تناوله بالهوينا من السعي، فلا يشاركها فيه وغير بني جنسها من الطير، ولو كان ما تقتات به يوجد معدًا مجموعًا كله كانت الطير تشاركها فيه وتغلبها عليه، ولحكمة أخرى بديعة فذلك لو وجدته معدًا مجموعًا لأكبت عليه بحرص ورغبة، فلا تقلع عنه وإن شبعت حتى تبشم[1] وتهلك.

وكذلك الناس لو جعل طعامهم معدًا لهم بغير سعي ولا تعب أدى ذلك إلى الشره والبطنة ولكثر الفساد وعمت الفواحش ولبغوا في الأرض، فسبحان اللطيف الخبير الذي لم يخلق شيئًا سدى ولا عبثًا.

طيور الليل:

وانظر في هذه الطير التي لا تخرج إلا بالليل كالبوم والهام والخفاش، فإن أقواتها هيئت لها في الجو لا من الحب ولا من اللحم، بل من البعوض والفراش وأشباههما مما

(١) أي: تصاب بالتخمة.

تلقطه من الجو، فتأخذ منه بقدر حاجتها ثم تأوي إلى بيوتها، فلا تخرج إلى مثل ذلك الوقت بالليل وذلك أن هذه الضروب من البعوض والفراش وأشباههما مبثوثة في الجو لا يكاد يخلو منها موضع منه واعتبر ذلك بأن تضع سراجًا بالليل في سطح أو عرصة الدار فيجتمع عليه من هذا الضرب الشيء الكثير.

وهذا الضرب من الفراش ونحوها ناقص الفطنة ضعيف الحيلة ليس في الطير أضعف منه ولا أجهل وفيما يرى من تهافته في النار وأنت تطرده عنها حتى يحرق نفسه دليل على ذلك، فجعل معاش هذه الطيور التي تخرج بالليل من هذا الضرب فتقتات منه فإذا أتى النهار انقطعت إلى أوكارها، فالليل لها بمنزلة النهار لغيرها من الطير، ونهارها بمنزلة ليل غيرها ومع ذلك، فساق لها الذي تكفل بأرزاق الخلق رزقها وخلقه لها في الجو ولم يدعها بلا رزق مع ضعفها وعجزها.

وهذه إحدى الحكم والفوائد في خلق هذه الفراش والجنادب والبعوض، فكم فيها من رزق لأمة تسبح بحمد ربها ولولا ذلك لانتشرت وكثرت حتى أضرت بالناس ومنعتهم القرار فانظر إلى عجيب تقدير الله وتدبيره كيف اضطر العقول إلى أن شهدت بربوبيته وقدرته وعلمه وحكمته وأن ذلك الذي تشاهده ليس باتفاق ولا بإهمال من سائر وجوه الأدلة التي لا تتمكن الفطر من جحدها أصلًا.

ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى

وأما التقدير والهداية فقال مقاتل: قدر خلق الذكر والأنثى فهدى الذكر للأنثى كيف يأتيها. وقال ابن عباس والكلبي وكذلك قال عطاء: قدر من النسل ما أراد ثم هدى الذكر للأنثى واختار هذا القول صاحب النظم فقال: معنى ﴿هَدَىٰ﴾ هداية الذكر لإتيان الأنثى كيف يأتيها؛ لأن إتيان ذكران الحيوان لإناثه مختلف لاختلاف الصور والخلق والهيآت، فلولا أنه سبحانه جبل كل ذكر على معرفة كيف يأتي أنثى جنسه لما اهتدى لذلك. وقال مقاتل أيضًا: هداه لمعيشته ومرعاه. وقال السدي: قدر مدة الجنين

في الرحم ثم هداه للخروج وقال مجاهد: هدى الإنسان لسبيل الخير والشر والسعادة والشقاوة وقال الفراء: التقدير فهدى وأضل، فاكتفى من ذكر أحدهما بالآخر.

قلت: الآية أعم من هذا كله وأضعف الأقوال فيها قول الفراء؛ إذ المراد هاهنا الهداية العامة لمصالح الحيوان في معاشه، ليس المراد هداية الإيمان والضلال بمشيئته، وهو نظير قوله: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠].

فإعطاء الخلق إيجاده في الخارج، والهداية التعليم والدلالة على سبيل بقائه وما يحفظه ويقيمه. وما ذكر مجاهد فهو تمثيل منه لا تفسير مطابق للآية، فإن الآية شاملة لهداية الحيوان كله ناطقه وبهيمه، وطيره ودوابه فصيحه وأعجمه. وكذلك قول من قال أنه هداية الذكر لإتيان الأنثى تمثيل أيضًا، وهو فرد واحد من أفراد الهداية التي لا يحصيها إلا الله. وكذلك قول من قال: هداه للمرعى، فإن ذلك من الهداية فإن الهداية إلى التقام الثدي عند خروجه من بطن أمه، والهداية إلى معرفته أمه دون غيرها حتى يتبعها أين ذهبت، والهداية إلى قصد ما ينفعه من المرعى دون ما يضره منه، وهداية الطير والوحش والدواب إلى الأفعال العجيبة التي يعجز عنها الإنسان، كهداية النحل إلى سلوك السبل التي فيها مراعيها على تباينها، ثم عودها إلى بيوتها من الشجر والجبال وما يغرس بنو آدم[1].

العبر والآيات في حياة النحل

عبودية النحل لله عَزَّ وَجَلَّ:

ثم تأمل أحوال النحل وما فيها من العبر والآيات، فانظر إليها وإلى اجتهادها في صنعة العسل وبنائها البيوت المسدسة التي هي من أتم الأشكال وأحسنها استدارة وأحكمها صنعًا فإذا انضم بعضها إلى بعض لم يكن بينها فرجة ولا خلل كل هذا بغير

(١) شفاء العليل [١٥٤-١٥٥].

مقياس ولا آله ولا بركار[١] وتلك من أثر صنع الله وإلهامه إياها وإيحائه إليها كما قال تعالى: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٦٨-٦٩].

فتأمل كمال طاعتها وحسن ائتمارها لأمر ربها اتخذت بيوتها في هذه الأمكنة الثلاثة في الجبال الشقفانات[٢] وفي الشجر وفي بيوت الناس حيث يعرشون أي يبنون العروش وهي البيوت، فلا يرى للنحل بيت غير هذه الثلاثة البتة.

وتأمل كيف أكثر بيوتها في الجبال والشقفان وهو البيت المقدم في الآية ثم في الأشجار وهي من أكثر بيوتها ومما يعرش الناس وأقل بيوتها بينهم حيث يعرشون وأما في الجبال والشجر، فبيوت عظيمة يؤخذ منها من العسل الكثير جدًا.

وتأمل كيف أداها حسن الامتثال إلى أن اتخذت البيوت أولًا ثم إذا استقر لها بيت خرجت منه فَرَعَتْ وأكلت من الثمار ثم آوت إلى بيوتها لأن ربها سبحانه أمرها باتخاذ البيوت أولًا ثم بالأكل بعد ذلك ثم إذا أكلت سلكت سبل ربها مذللة لا يستوعر عليها شيء ترعى ثم تعود.

مملكة النحل:

من عجيب شأنها أن لها أميرًا يسمى اليعسوب لا يتم لها رواح ولا إياب ولا عمل ولا مرعى إلا به فهي مؤتمرة لأمره سامعة له مطيعة وله عليها تكليف وأمر ونهى وهي رعية له منقادة لأمره متبعة لرأيه يدبرها كما يدبر الملك أمر رعيته حتى إنها إذا آوت إلى بيوتها وقف على باب البيت، فلا يدع واحدة تزاحم الأخرى ولا تتقدم عليها في العبور،

(١) البركار: هو البرجل ويسمى أيضًا فرجار.

(٢) وهي: بيوت النحل.

بل تعبر بيوتها واحدة بعد واحدة بغير تزاحم ولا تصادم ولا تراكم كما يفعل الأمير إذا انتهى بعسكره إلى معبر ضيق لا يجوزه إلا واحد واحد.

ومن تدبر أحوالها وسياساتها وهدايتها واجتماع شملها وانتظام أمرها وتدبير ملكها وتفويض كل عمل إلى واحد منها يتعجب منها كل العجب ويعلم أن هذا ليس في مقدورها ولا هو من ذاتها، فإن هذه أعمال محكمة متقنة في غاية الإحكام والإتقان، فإذا نظرت إلى العامل رأيته من أضعف خلق الله، أجهله بنفسه وبحاله وأعجزه عن القيام بمصلحته، فضلًا عما يصدر عنه من الأمور المحببة ومن عجيب أمرها أن فيها أميرين لا يجتمعان في بيت واحد ولا يتآمران على جمع واحد، بل إذا اجتمع منها جندان والأميران قتلوا أحد الأميرين وقطعوه واتفقوا على الأمير الواحد من غير معاداة بينهم ولا أذى من بعضهم لبعض، بل يصيرون يدًا واحدة وجندًا واحدًا[1].

وأمر النحل في هدايتها من أعجب العجب، وذلك أن لها أميرًا ومدبرًا وهو اليعسوب وهو أكبر جسمًا من جميع النحل، وأحسن لونًا وشكلًا. وإناث النحل تلد في إقبال الربيع، وأكثر أولادها يكن إناثًا، وإذا وقع فيها ذكر لم تدعه بينها، بل إما أن تطرده وإما أن تقتله، إلا طائفة يسيرة منها تكون حول الملك وذلك أن الذكر منها لا تعمل شيئًا ولا تكسب، ثم تجمع الأمهات وفراخها عند الملك، فيخرج بها إلى المرعى من المروج والرياض والبساتين والمراتع في أقصر الطرق وأقربها فيجتني منها كفايتها ويرجع بها الملك، فإذا انتهوا إلى الخلايا وقف على بابها ولم يدع ذكرًا ولا نحلة غريبة تدخلها، فإذا تكامل دخولها دخل بعدها وتواجدت النحل على مقاعدها وأماكنها، فيبتدئ الملك بالعمل كأنه يعلمها إياه، فيأخذ النحل في العمل ويتسارع إليه، ويترك الملك العمل ويجلس ناحية بحيث يشاهد النحل، فيأخذ النحل في إيجاد الشمع من لزُوجات الأوراق والأنوار، ثم تقتسم النحل فرقًا، فمنها فرقة تلزم الملك ولا تفارقه ولا تعمل ولا

(١) السابق (١/ ٣٨١-٣٨٢).

تكسب، وهم حاشية الملك من الذكورة، ومنها فرقة تهيئ الشمع وتصنعه، والشمع هو ثقل العسل وفيه حلاوة كحلاوة التين، وللنحل فيه عناية شديدة فوق عنايتها بالعسل، فينظفه النحل ويصفيه ويخلصه من أبوالها وغيرها، وفرقة تبني البيوت، وفرقة تسقي الماء وتحمله على متونها، وفرقة تكنس الخلايا وتنظفها من الأوساخ والجيف والزبل، وإذا رأت بينها نحلة مهينة بطالة قطعها وقتلها حتى لا تفسد عليهم بقية العمال وتعديهن ببطالتها ومهانتها.

بناء الخلية:

وأول ما يبنى في الخلية مقعد الملك وبيته، فيبنى له بيتًا مربعًا يشبه السرير والتخت، فيجلس عليه ويستدير حوله طائفة من النحل يشبه الأمراء والخدم والخواص لا يفارقنه، ويجعل النحل بين يديه شيئًا يشبه الحوض يصب فيه من العسل أصفى ما يقدر عليه ويملأ منه الحوض يكون ذلك طعامًا للملك وخواصه، ثم يأخذن في ابتناء البيوت على خطوط متساوية وكأنها سكك ومحال، وتبني بيوتها مسدسة متساوية الأضلاع، كأنها قرأت كتاب إقليدس حتى عرفت أوفق الأشكال لبيوتها؛ لأن المطلوب من بناء الدور هو الوثاقة والسعة. والشكل المسدس دون سائر الأشكال إذا انضمت بعض أشكاله إلى بعض صار شكلًا مستديرًا كاستدارة الرحى، ولا يبقى فيه فروج ولا خلل ويشد بعضه بعضًا حتى يصير طبقًا واحدًا محكمًا لا يدخل بين بيوته رؤوس الإبر، فتبارك الذي ألهمها أن تبني بيوتها هذا البناء المحكم الذي يعجز البشر عن صنع مثله، فعلمت أنها محتاجة إلى أن تبني بيوتها من أشكال موصوفة بصفتين إحداهما: أن لا يكون زواياها ضيقة حتى لا يبقى الموضع الضيق معطلًا، والثانية: أن تكون تلك البيوت مشكلة بأشكال إذا انضم بعضها إلى بعض امتلأت العرصة منها، فلا يبقى منها شيء ضائعًا ثم إنها علمت أن الشكل الموصوف بهاتين الصفتين هو المسدس فقط، فإن المثلثات والمربعات وإن أمكن امتلاء العرصة منها إلا أن زواياها ضيقة وأما سائر الأشكال وإن كانت زواياها واسعة

إلا أنها لا تمتلئ العرصة منها، بل يبقى فيما بينها فروج خالية ضائعة. وأما المسدس فهو موصوف بهاتين الصفتين فهداها سبحانه على بناء بيوتها إلى هذا الشكل من غير مسطرة ولا آلة ولا مثال يحتذى عليه. وأصنع بني آدم لا يقدر على بناء البيت المسدس إلا بالآلات الكبيرة، فتبارك الذي هداها أن تسلك سبل مراعيها إلى قوتها وتأتيها ذللًا لا تستعصي عليها ولا تضل عنها[١]، وأن تجتني أطيب ما في المرعى وألطفه، وأن تعود إلى بيوتها الخالية فتصب فيها ﴿شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٦٩].

النظام في حياة النحل:

فإذا فرغت من بناء البيوت خرجت خماصًا[٢] تسيح سهلًا وجبلًا، فأكلت من الحلاوات المرتفعة على رؤوس الأزهار وورق الأشجار، فترجع بطانًا وجعل سبحانه في أفواهها حرارة منضجة، تنضج ما جنته فتعيده حلاوة ونضجًا، ثم تمجه في البيوت حتى إذا امتلأت ختمتها وسدت رؤوسها بالشمع المصفى، فإذا امتلأت تلك البيوت عمدت إلى مكان آخر إن صادفته، فاتخذت فيه بيوتًا وفعلت كما فعلت في البيوت الأولى، فإذا برد الهوى وأخلف المرعى وحيل بينها وبين الكسب لزمت بيوتها واغتذت بما ادخرته من العسل وهي في أيام الكسب والسعي تخرج بكرة وتسيح في المراتع[٣]، وتستعمل كل فرقة منها بما يخصها من العمل، فإذا أمست رجعت إلى بيوتها، وإذا كان وقت رجوعها وقف على باب الخلية بواب منها ومعه أعوان، فكل نحلة تريد الدخول يشمها البواب و يتفقدها، فإن وجد منها رائحة منكرة أو رأى بها لطخة من قذر منعها من الدخول وعزلها ناحية إلى أن يدخل الجميع، فيرجع إلى المعزولات الممنوعات من الدخول فيتفقدهن

(١) شفاء العليل [١٥٥-١٥٦].

(٢) خماصًا: جائعة.

(٣) المراتع: المراعي.

ويكشف أحوالهن مرة ثانية، فمن وجده قد وقع على شيء منتن أو نجس قده نصفين، ومن كانت جنايته خفيفة تركه خارج الخلية، هذا دأب البواب كل عشية وأما الملك، فلا يكثر الخروج من الخلية إلا نادرًا إذا اشتهى التنزه، فيخرج ومعه أمراء النحل والخدم، فيطوف في المروج والرياض والبساتين ساعة من النهار ثم يعود إلى مكانه.

ومن عجيب أمره أنه ربما لحقه أذى من النحل أو من صاحب الخلية أو من خدمه، فيغضب ويخرج من الخلية ويتباعد عنها ويتبعه جميع النحل وتبقى الخلية خالية، فإذا رأى صاحبها ذلك وخاف أن يأخذ النحل ويذهب بها إلى مكان آخر احتال لاسترجاعه وطلب رضاه، فيتعرف موضعه الذي صار إليه بالنحل فيعرفه باجتماع النحل إليه فإنها لا تفارقه وتجتمع عليه حتى تصير عليه عنقودًا، وهو إذا خرج غضبًا جلس على مكان مرتفع من الشجرة وطافت به النحل وانضمت إليه حتى يصير كالكرة، فيأخذ صاحب النحل رمحًا أو قصبة طويلة ويشد على رأسه حزمة من النبات الطيب الرائحة العطر النظيف ويدنيه إلى محل الملك ويكون معه إما مزهر أو يراع أو شيء من آلات الطرب فيحركه وقد أدنى إليه ذلك الحشيش، فلا يزال كذلك إلى أن يرضى الملك، فإذا رضي وزال غضبه طفر[١] ووقع على الضغث[٢] وتبعه خدمه وسائر النحل، فيحمله صاحبه إلى الخلية فينزل ويدخلها هو وجنوده. ولا يقع النحل على جيفة ولا حيوان ولا طعام.

ومن عجيب أمرها أنها تقتل الملوك الظلمة المفسدة، ولا تدين لطاعتها والنحل الصغار المجتمعة الخلق هي العسالة، وهي تحاول مقاتلة الطوال القليلة النفع وإخراجها ونفيها عن الخلايا وإذا فعلت ذلك جاد العسل، وتجتهد أن تقتل ما تريد قتلها خارج الخلية صيانة للخلية عن جيفته. ومنها صنف قليل النفع كبير الجسم، وبينها وبين العسالة حرب، فهي تقصدها وتغتالها وتفتح عليها بيوتها وتقصد هلاكها، والعسالة

(١) طفر: أي قفر.

(٢) الضغث: كل ما جمع وقبض عليه بجمع الكف (حزمة) وجمعه: أضغاث.

شديدة التيقظ والتحفظ منها، فإذا هجمت عليها في بيوتها حاولتها وألجأتها إلى أبواب البيوت فتتلطخ بالعسل، فلا تقدر على الطيران ولا يفلت منها الآكل طويل العمر، فإذا انقضت الحرب وبرد القتال عادت إلى القتلى، فحملتها وألقتها خارج الخلية وقد ذكرنا أن الملك لا يخرج إلا في الأحايين، وإذا خرج خرج في جموع من الفراخ والشبان، وإذا عزم على الخروج ظل قبل ذلك اليوم أو يومين يعلم الفراخ وينزلها منازلها ويرتبها، فيخرج ويخرجن معه على ترتيب ونظام قد دبره معهن لا يخرجن عنه، وإذا تولدت عنده ذكران عرف أنهن يتطلبن الملك، فيجعل كل واحد منهم على طائفة من الفراخ، ولا يقتل ملك منها ملكًا آخر لما في ذلك من فساد الرعية وهلاكها وتفرقها وإذا رأى صاحب الخلية الملوك قد كثرت في الخلية وخاف من تفرق النحل بسببهم احتال عليهم وأخذ الملوك كلها إلا واحدًا، ويحبس الباقي عنده في إناء ويدع عندهم من العسل ما يكفيهم، حتى إذا حدث بالملك المنصوب حدث مرض أو موت أو كان مفسدًا فقتلته النحل أخذ من هؤلاء المحبوسين واحدًا وجعله مكانه؛ لئلا يبقى النحل بلا ملك، فيتشتت أمرها.

ومن عجيب أمرها أن الملك إذا خرج متنزهًا ومعه الأمراء والجنود ربما لحقه إعياء فتحمله الفراخ، وفي النحل كرام عمال لها سعي وهمة واجتهاد وفيها لئام كسالى قليلة النفع مؤثرة للبطالة، فالكرام دائمًا تطردها وتنفيها عن الخلية ولا تساكنها خشية أن تعدي كرامها وتفسدها. والنحل من ألطف الحيوان وأنقاه؛ ولذلك لا تلقي زبلها إلا حين تطير وتكره النتن والروائح الخبيثة، وأبكارها وفراخها أحرس وأشد اجتهادًا من الكبار، وأقل لسعًا وأجود عسلًا ولسعها إذا لسعت أقل ضررًا من لسع الكبار.

ولما كانت النحل من أنفع الحيوان وأبركه قد خصت من وحي الرب تعالى وهدايته، لما لم يشركها فيه غيرها، وكان الخارج من بطونها مادة الشفاء من الأسقام والنور الذي

يضيء في الظلام بمنزلة الهداة من الأنام كان أكثر الحيوان أعداؤها، وكان أعداؤها من أقل الحيوان منفعة وبركة وهذه سنة الله في خلقه، وهو العزيز الحكيم[١].

نتاج النحل:

ومن عجيب أمرها ما لا يهتدي له أكثر الناس ولايعرفونه وهو النتاج الذي يكون لها هل هو على وجه الولادة والتوالد أو الاستحالة؟ فقل من يعرف ذلك أو يفطن له، وليس نتاجها على واحد من هذين الوجهين وإنما نتاجها بأمر من أعجب العجيب، فإنها إذا ذهبت إلى المرعي أخذت تلك الأجزاء الصافية التي على الورق من الورد والزهر والحشيش وغيره وهي الطل فتمصها وذلك مادة العسل ثم إنها تكبس الأجزاء المنعقدة على وجه الورقة وتعقدها على رجلها كالعدسة، فتملأ بها المسدسات الفارغة من العسل ثم يقوم يعسوبها على بيته مبتدئًا منه فينفخ فيه ثم يطوف على تلك البيوت بيتًا بيتًا وينفخ فيها كلها فتدب فيها الحياة بإذن الله.

وتلك إحدى الآيات والعجائب التي قل من يتفطن لها وهذا كله من ثمرة ذلك الوحي الإلهي أفادها وأكسبها هذا التدبير والسفر والمعاش و البناء والنتاج.

فسل المعطل: من الذي أوحى إليها أمرها وجعل ما جعل في طباعها؟ ومن الذي سهل لها سبله ذللًا منقادة لا تستعصي عليها ولا تستوعرها ولا تضل عنها على بعدها[٢]؟

ومن الذي هداها لشأنها ومن الذي أنزل لها من الطل ما إذا جنته ردته عسلًا صافيًا مختلفًا ألوانه في غاية الحلاوة واللذاذة والمنفعة من بين أبيض يرى فيه الوجه أعظم من رؤيته في المرآة وسماه لي من جاء به وقال: هذا أفخر ما يعرف الناس من العسل وأصفاه

(١) السابق [١٥٨].

(٢) مفتاح دار السعادة (١/ ٣٨٢).

وأطيبه، فإذا طعمه ألذ شيء يكون من الحلوى ومن بين أحمر وأخضر ومورد وأسود وأشقر وغير ذلك من الألوان والطعوم المختلفة فيه بحسب مراعيه ومادتها.

وإذا تأملت ما فيه من المنافع والشفاء ودخوله في غالب الأدوية حتى كان المتقدمون لا يعرفون السكر ولا هو مذكور في كتبهم أصلًا، وإنما كان الذي يستعملونه في الأدوية هو العسل وهو المذكور في كتب القوم.

ولعمر الله أنه لأنفع من السكر وأجدى وأجلى للأخلاط وأقمع لها وأذهب لضررها وأقوى للمعدة وأشد تفريحًا للنفس وتقوية للأرواح وتنفيذًا للدواء وإعانة له على استخراج الداء من أعماق البدن.

ولهذا لم يجيء في شيء من الحديث قط ذكر السكر ولا كانوا يعرفونه أصلًا ولو عدم من العالم لما احتاجوا إليه ولو عدم العسل لاشتدت الحاجة إليه وإنما غلب على بعض المدن استعمال السكر حتى هجروا العسل واستطابوه عليه ورأوه أقل حدة وحرارة منه ولم يعلموا أن من منافع العسل ما فيه من الحدة والحرارة، فإذا لم يوافق من يستعمله كسرها بمقابلها فيصير أنفع له من السكر. وسنفرد -إن شاء الله- مقالة نبين فيها فضل العسل على السكر من طرق عديدة لا تمنع وبراهين كثيرة لا تدفع ومتى رأيت السكر يجلو بلغمًا ويذيب خلطًا أو يشفى من داء؟ وإنما غايته بعض التنفيذ للدواء إلى العروق للطافته وحلاوته وأما الشفاء الحاصل من العسل فقد حرمه الله كثيرًا من الناس حتى صاروا يذمونه ويخشون غائلته من حرارته وحدته.

ولا ريب أن كونه شفاء وكون القرآن شفاء والصلاة شفاء وذكر الله والإقبال عليه شفاء أمر لا يعم الطبائع والأنفس، فهذا كتاب الله هو الشفاء النافع وهو أعظم الشفاء وما أقل المستشفين به، بل لا يزيد الطبائع الرديئة إلا رداءة ولا يزيد الظالمين إلا خسارًا وكذلك ذكر الله والإقبال عليه والإنابة إليه والفزع إلى الصلاة كم قد شفي به من عليل! وكم قد عوفي به من مريض! وكم قام مقام كثيرًا من الأدوية التي لا تبلغ قريبًا من مبلغه

في الشفاء! وأنت ترى كثيرًا من الناس -بل أكثرهم- لا نصيب لهم من الشفاء بذلك إليه أصلًا.

ولقد رأيت في بعض كتب الأطباء المسلمين في ذكر الأدوية المفردة ذكر الصلاة؛ ذكرها في باب الصاد وذكر من منافعها في البدن التي توجب الشفاء وجوها عديدة ومن منافعها في الروح والقلب(١).

وسمعت شيخنا أبا العباس بن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ يقول وقد عرض له بعض الألم فقال له الطبيب: أضر ما عليك الكلام في العلم والفكر فيه والتوجه والذكر فقال: ألستم تزعمون أن النفس إذا قويت وفرحت أوجب فرحها لها قوة تعين بها الطبيعة على دفع العارض فإنه عدوها، فإذا قويت عليه قهرته فقال له الطبيب: بلى فقال: إذا اشتغلت نفسي بالتوجه والذكر والكلام في العلم وظفرت بما يشكل عليها منه؛ فرحت به وقويت؛ فأوجب ذلك دفع العارض هذا أو نحوه من الكلام. والمقصود أن ترك كثير من الناس الاستشفاء بالعسل لا يخرجه عن كونه شفاء، كما أن ترك أكثرهم الاستشفاء بالقرآن من أمراض القلوب لا يخرجه عن كونه شفاء لها وهو شفاء لما في الصدور وإن لم يستشف به أكثر المرضى كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يُونُس:٥٧]، فعم بالموعظة والشفاء وخص بالهدى والمعرفة فهو نفسه شفاء استشفى به أو لم يستشف به ولم يصف الله في كتابه بالشفاء إلا القرآن والعسل فهما شفاآن هذا شفاء القلوب من أمراض غيها وضلالها وأدواء شبهاتها وشهواتها وهذا شفاء للأبدان من كثير من أسقامها وأخلاطها وآفاتها.

ولقد أصابني أيام مقامي بمكة أسقام مختلفة ولا طبيب هناك ولا أدوية كما في غيرها من المدن فكنت أستشفى بالعسل وماء زمزم ورأيت فيهما من الشفاء أمرًا عجيبًا، وتأمل

(١) انظر ذلك في الجزء الخاص بالطب من كتاب «زاد المعاد» للمصنف رَحِمَهُ اللَّهُ.

أخباره سبحانه وتعالى عن القرآن بأنه نفسه شفاء وقال عن العسل: ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾ [النحل: ٦٩]، وما كان نفسه شفاء أبلغ مما جعل فيه شفاء وليس هذا موضع استقصاء فوائد العسل ومنافعه.

من منافع عسل النحل:

وأما هديه ﷺ في الشراب فإنه كان أكمل هَدْيٍ يحفظ به الصحة، فإنه كان يشرب العسلَ الممزوجَ بالماء البارد، وفى هذا مِن حفظ الصحة ما لا يَهتدى إلى معرفته إلا أفاضلُ الأطباء، فإنَّ شُربه ولعقَه على الرِّيق يُذيب البلغم، ويغسِلُ خَمْل المَعِدَة، ويجلُو لزوجتها، ويدفع عنها الفضلات، ويُسخنها باعتدال، ويفتحُ سددها، ويفعل مثل ذلك بالكَبِد والكُلَى والمثَانة، وهو أنفع للمَعِدَة من كل حلو دخلها، وإنما يضر بالعَرَض لصاحب الصَّفراء لحدَّتِه وحِدَّة الصفراء، فربما هيَّجها، ودفعُ مضرَّته لهم بالخلِّ، فيعودُ حينئذ لهم نافعًا جدًا، وشربه أنفع من كثير من الأشربة المتخذة من السكر أو أكثرِها، ولاسِيَّما لمن لم يعتد هذه الأشربة، ولا ألِفَها طبعُه، فإنه إذا شربها لا تلائمه ملاءمةَ العسل، ولا قريبًا منه، والمحكَّمُ فى ذلك العادة، فإنها تهدم أُصولًا، وتبنى أُصولا

وأما الشراب إذا جَمَعَ وصْفَىْ الحلاوة والبرودة، فمن أنفع شيء للبدن، ومن أكبر أسباب حفظ الصحة، وللأرواح والقُوى، والكبد والقلب، عشقٌ شديدٌ له، واستمدادٌ منه، وإذا كان فيه الوصفانِ، حصَلتْ به التغذيةُ، وتنفيذُ الطعام إلى الأعضاء، وإيصاله إليها أتمَّ تنفيذ[1].

والعسل فيه منافع عظيمة فإنه جلاء للأوساخ التي في العروق والأمعاء وغيرها، محلل للرطوبات أكلًا وطِلَاء نافع للمشايخ وأصحاب البلغم ومن كان مزاجه باردًا رطبًا وهو مغذٍّ ملينٌ للطبيعة، حافظ لقوى المعاجين ولما استودع فيه، مذهب لكيفيات الأودية

(١) زاد المعاد (٤/ ٢٢٤-٢٢٥).

الكريهة، منقٍّ للكبد والصدر، مُدِرٌّ للبول، موافق للسعال الكائن عن البلغم، وإذا شُرِب حارًا بدهن الورد نفع من نهش الهوام وشرب وحده ممزوجًا بماء نفع من عضة الكلب وأكل الفطر القتال، وإذا جعل فيه اللحم الطري حفظ طراوته ثلاثة أشهر، وكذلك إن جُعل فيه القثاء والخيار والقرع والباذنجان، ويحفظ كثيرًا من الفاكهة ستة أشهر، ويحفظ جثة الموتى ويسمي الحافظ الأمين، وإذا الطخ به البدن المقمل والشعر قتل قمله وصئبانه وطوَّل الشعر وحسَّنه ونعمه، وإن إكتحل به جلا ظلمه البصر، وإن استن به بيض الأسنان وصفلها وحفظ صحتها وصحة اللثة، ويفتح أفواه العروق ويدر الطمث، ولعقه على الريق يذهب البلغم وهو أقل ضررًا لشدد الكبد والطحال من كل حلو، وهو مع هذا كله مأمون الغائلة، قيل المضار وهو غذاء مع الأغذية ودواء مع الأدوية، وشراب مع الأخربة وحلو مع الحلوى، وطلاء مع الأطلية ومفرِّح مع المفرحات فما خلق لنا شيء في معناه أفضل منه ولا مثله ولا قريبًا منه[1].

الحكم والأسرار في خلق النملة:

ثم تأمل هذه النملة الضعيفة وما أعطيته من الفطنة أو الحيلة في جمع القوت وادخاره وحفظه ودفع الآفة عنه فإنك ترى في ذلك عبرا وآيات، فترى جماعة النمل إذا أرادت إحراز القوت خرجت من أسرابها طالبة له، فإذا ظفرت به أخذت طريقًا من أسرابها إليه وشرعت في نقله فتراها رفقتين رفقة حاملة تحمله إلى بيوتها ذهابًا ورفقة خارجة من بيوتها إليه لاتخالط تلك في طريقها، بل هما كالخيطين بمنزلة جماعة الناس الذاهبين في طريق والجماعة الراجعين من جانبهم فإذا ثقل عليها حمل الشيء من ذلك اجتمعت عليه جماعة من النمل وتساعدت على حمله بمنزلة الخشبة والحجر الذي تتساعد الفئة من الناس عليه، فإذا كان الذي ظفر به منهن وحدة ساعدها رفقتها عليه إلى بيتها وخلوا بينها وبينه وإن كان الذي صادفه جماعة تساعدن عليه ثم تقاسمنه على باب البيت ولقد أخبر بعض

(١) زاد المعاد (٤/ ٣٠).

العارفين أنه شاهد منهن يومًا عجبًا، قال: رأيت نملة جاءت إلى شق جرادة فزاولته، فلم تطق حمله من الأرض فذهبت غير بعيد ثم جاءت معها بجماعة من النمل: قال فرفعت ذلك الشق من الأرض، فلما وصلت النملة برفقتها إلى مكانه دارت حوله ودرن معها، فلم يجدن شيئًا فرجعن فوضعته ثم جاءت فصادفته فزاولته، فلم تطق رفعه، فذهبت غير بعيد ثم جاءت بهن فرفعته، فدرن حول مكانه، فلم يجدن شيئًا، فذهبت فوضعته، فعادت فجاءت بهن فرفعته، فدرن حول المكان، فلما لم يجدن شيئًا تحلقن حلقة وجعلن تلك النملة في وسطها ثم تحاملن عليها فقطعنها عضوًا عضوًا وأنا أنظر.

ومن عجيب أمر الفطنة فيها إذا نقلت الحب إلى مساكنها كسرته؛ لئلا ينبت، فإن كان مما ينبت الفلقتان منه كسرته أربعًا، فإذا أصابه ندا وبلل وخافت عليه الفساد أخرجته للشمس ثم ترده إلى بيوتها.

ولهذا ترى في بعض الأحيان حبًا كثيرًا على أبواب مساكنها مكسرًا ثم تعود عن قريب، فلا ترى منه واحدة.

هداية النمل:

وهذه النمل من أهدى الحيوانات، وهدايتها من أعجب شيء، فإن النملة الصغيرة تخرج من بيتها وتطلب قوتها وإن بعدت عليها الطريق، فإذا ظفرت به حملته وساقته في طرق معوجة بعيدة ذات صعود وهبوط في غاية من التوُّعر حتى تصل إلى بيوتها فتخزن فيها أقواتها في وقت الإمكان، فإذا خزنتها عمدت إلى ما ينبت منها ففلقته فلقتين لئلا ينبت، فإن كان ينبت مع فلقه باثنتين فلقته بأربعة، فإذا أصابه بلل وخافت عليه العفن والفساد انتظرت به يومًا ذا شمس فخرجت به فنشرته على أبواب بيوتها ثم أعادته إليها ولا تتغذى منها نملة مما جمعه غيرها ويكفي في هداية النمل ما حكاه الله سبحانه في

القرآن عن النملة التي سمع سليمان كلامها وخطابها لأصحابها بقولها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: ١٨](١).

فاستفتحت خطابها بالنداء الذي يسمعه من خاطبته، ثم أتت بالاسم المبهم ثم أتبعته بما يثبته من اسم الجنس إرادة للعموم ثم أمرتهم بأن يدخلوا مساكنهم فيتحصنون من العسكر، ثم أخبرت عن سبب هذا الدخول وهو خشية أن تصيبهم مضرة الجيش، فيحطمهم سليمان وجنوده ثم اعتذرت عن نبي الله وجنوده بأنهم لا يشعرون بذلك، وهذا من أعجب الهداية، وتأمل كيف عظم الله سبحانه شأن النمل بقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ﴾ [النمل: ١٧].

فأخبر أنهم بأجمعهم مروا على ذلك الوادي ودل على أن ذلك الوادي كان معروفًا بالنمل كوادي السباع ونحوه، ثم أخبر بما دل على شدة فطنة هذه النملة ودقة معرفتها حيث أمرتهم أن يدخلوا مساكنهم المختصة بهم، فقد عرفت هي والنمل أن لكل طائفة منها مسكنًا لا يدخل عليهم فيه سواهم ثم قالت: ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ﴾.

[النمل: ١٨]

فجمعت بين اسمه وعينه وعرفته بهما وعرفت جنوده وقائدها، ثم قالت: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: ١٨].

فكأنها جمعت بين الاعتذار عن مضرة الجيش بكونهم لا يشعرون، وبين لوم أمة النمل حيث لم يأخذوا حذرهم ويدخلوا مساكنهم، ولذلك تبسم نبي الله ضاحكًا من قولها(٢) وأنه لموضع تعجب وتبسم، وقد روى الزهري عن عبد الله بن عبد الله بن عيينة عن ابن عباس

(١) شفاء العليل [١٥٨-١٥٩].

(٢) قلت: وفي ذلك معجزتان الأول أن الله أعطى سليمان فهم لغة النمل كما قال تعالى عنه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾ [النمل: ١٦] والمعجزة الأخرى سماعه لصوت النمل وكلامه إذا إن الأذن البشرية لا يمكن أبدًا أن تسمع إليها معجزة أخرى وهي سماعه لكلام النمل والله تعالى أعلم.

obeikandl.com

أن رسول الله ﷺ: «**نهى عن قتل النمل والنحلة والهدهد والصرد**»[١] وفي الصحيح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**نزل بني من الأنبياء تحت شجرة فقرصته نملة فأمر بجهازه فأخرج وأمر بقرية النمل فأحرقت فأوحى الله إليه أمن أجل أن قرصتك نملة أحرقت أمة من الأمم تسبح، فهلا نملة واحدة**»[٢][٣].

أخبر الله شبحانه عن النمل أنه ركب فيه مثل هذا الشعور والنطق، ولا سيما هذه النملة التي جمعت في هذا الخطاب بين النداء، والتعبير، والتنبيه، والتخصيص، والأمر وإضافة المساكن إلى أربابها والتجائهم إلى مساكنهم، فلا يدخلون على غيرهم من الحيوانات مساكنهم والتغير والاعتذار بأوجز خطاب وأعذب لفظ ولذلك، حمل سليمان عليه السلام التعجب من قولها على التبسم[٤].

ومن فطنتها أنها لا تتخذ قريتها إلا على نشر من الأرض لئلا يفيض عليها السيل فيغرقها، فلا ترى قرية نمل في بطن واد ولكن في أعلاه وما ارتفع عن السيل منه.

ويكفي في فطنتها ما نص الله عز و جل في كتابه من قولها لجماعة النمل وقد رأت سليمان عليه الصلاة والسلام وجنوده: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ**﴾ [النمل: ١٨]، فتكلمت بعشرة أنواع من الخطاب في هذه النصيحة، النداء، والتنبيه، والتسمية، والأمر، والنص، والتحذير، والتخصيص، والتفهيم، والتعميم، والاعتذار.

فاشتملت نصيحتها مع الاختصار على هذه الأنواع العشرة.

---

(١) رواه أبو داود برقم [٥٢٦٩]، وابن ماجه برقم [٣٢٢٣] وصححه الألباني في «صحيح الجامع» [٨٧٩] والصرج طائر ضخم الرأس أبيض البطن أخضر الظم يصطاد صغار الطير.

(٢) رواه البخاري برقم (٣٣١٩)، ومسلم برقم [١٧٥٩].

(٣) السابق (١٥٩-١٦٠).

(٤) اجتماع الجيوش الإسلامية (١/ ٢١٠) ط دار الكتب العلمية.

ولذلك أعجب سليمان قولها وتبسم ضاحكًا منه وسأل الله أن يوزعه شكر نعمته عليه لما سمع كلامها ولا تستبعد هذه الفطنة من أمة من الأمم تسبح بحمد ربها كما في الصحيح عن النبي ﷺ قال: «**نزل نبي من الأنبياء تحت شجرة، فلدغته نملة، فأمر بجهازه، فأخرج ثم أحرق قرية النمل، فأوحى الله إليه من أجل أن لدغتك نملة أحرقت أمة من الأمم تسبح، فهلا نملة واحدة**»(١).

وذكر هشام بن حسان: أن أهل الأحنف بن قيس لقوا من النمل شدة فأمر الأحنف بكرسي فوضع عند تنورين، فجلس عليه ثم تشهد ثم قال لتنتهن أو ليحرقن عليكن ونفعل ونفعل، قال فذهبن وروى عوف بن أبي جميلة عن قسامة بن زهير قال: قال أبو موسى الأشعري: إن لكل شيء سادة حتى للنمل سادة، ومن عجيب هدايتها أنها تعرف ربها بأنه فوق سماواته على عرشه، كما رواه الإمام أحمد في كتاب الزهد من حديث أبي هريرة يرفعه قال: «**خرج نبي من الأنبياء بالناس يستسقون فأذاهم بنملة رافعة قوائمها إلى السماء تدعو مستلقية على ظهرها، فقال ارجعوا فقد كفيتم أو سقيتم بغيركم**»(٢)، ولهذا الأثر عدة طرق، ورواه الطحاوي في التهذيب وغيره وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا مسعر بن زيد العمي عن أبي الصديق الناجي قال: خرج سليمان بن داود يستسقي فرأى نملة مستلقية على ظهرها رافعة قوائمها إلى السماء وهي تقول: اللهم إنا خلق من خلقك ليس بنا غنى عن سقياك ورزقك، فإما أن تسقينا وترزقنا، وإما أن تهلكنا، فقال: ارجعوا فقد سقيتم بدعوة غيركم.

ولقد حدثني أن نملة خرجت من بيتها فصادفت شق جرادة فحاولت أن تحمله، فلم تطق فذهبت وجاءت معها بأعوان يحملنه معها، قال فرفعت ذلك من الأرض فطافت في مكانه، فلم تجده فانصرفوا وتركوها، قال فوضعته، فعادت تحاول حمله، فلم

---

(١) سبق تخريجه في الصفحة السابقة.

(٢) رواه أبو نعيم في الحيلة (٣/ ١٠١) والحاكم (١/ ٣٢٥)، وفي سنده زيد العمي وهو ضعيف.

تقدر فذهبت وجاءت بهم فرفعته، فطافت فلم تجده، فانصرفوا قال، فعلت ذلك مرارًا فلما كان في المرة الأخرى استدار النمل حلقة ووضعوها في وسطها وقطعوها عضوًا عضوًا، وقال شيخنا[1]: وقد حكيت له هذه الحكاية فقال: هذه النمل فطرها الله سبحانه على قبح الكذب وعقوبة الكذاب.

حرص النمل:

والنمل من أحرص الحيوان ويضرب بحرصه المثل، ويذكر أن سليمان صلوات الله وسلامه عليه لما رأى حرص النملة وشدة ادخارها للغذاء استحضر نملة وسألها كم تأكل النملة من الطعام كل سنة؟ قالت: ثلاث حبات من الحنطة فأمر بإلقائها في قارورة وسد فم القارورة وجعل معها ثلاث حبات حنطة وتركها سنة بعدما قالت، ثم أمر بفتح القارورة عند فراغ السنة فوجد حبة ونصف حبة فقال: أين زعمك؟ أنت زعمت أن قوتك كل سنة ثلاث حبات، فقالت: نعم ولكن لما رأيتك مشغولًا بمصالح أبناء جنسك حسبت الذي بقي من عمري فوجدته أكثر من المدة المضروبة، فاقتصرت على نصف القوت واستبقيت نصفه استبقاء لنفسي، فعجب سليمان من شدة حرصها، وهذا من أعجب الهداية والعطية، ومن حرصها أنها تكد طوال الصيف وتجمع للشتاء علمًا منها بإعواز الطلب في الشتاء وتعذر الكسب فيه، وهي على ضعفها شديدة القوى، فإنها تحمل أضعاف أضعاف وزنها وتجره إلى بيتها.

ومن عجيب أمرها أنك إذا أخذت عضو كزبرة يابس فأدنيته إلى أنفك لم تشم له رائحة فإذا وضعته على الأرض أقبلت النملة من مكان بعيد إليه، فإن عجزت عن حمله ذهبت وأتت معها بصف من النمل يحتملونه، فكيف وجدت رائحة ذلك من جوف بيتها حتى أقبلت بسرعة إليه، فهي تدرك بالشم من البعد ما يدركه غيرها بالبصر أو بالسمع، فتأتي من مكان بعيد إلى موضع أكل فيه الإنسان وبقي فيه فتات من الخبز أو غيره فتحلمه

(١) يعنى شيخ الإسلام ابن تيمة رحمه الله.

وتذهب به وإن كان أكبر منها، فإن عجزت عن حمله ذهبت إلى جحرها وجاءت معها بطائفة من أصحابها فجاءوا كخيط أسود يتبع بعضهم بعضًا حتى يتساعدوا على حمله ونقله؛ وهي تأتي إلى السنبلة فتشمها فإن وجدتها حنطة قطعتها ومزقتها وحملتها، وإن وجدتها شعيرًا، فلا ولها صدق الشم وبعد الهمة وشدة الحرص والجرأة على محاولة نقل ما هو أضعاف أضعاف وزنها.

وليس للنمل قائد ورئيس يدبرها كما يكون للنحل: إلا أن لها رائدًا يطلب الرزق، فإذا وقف عليه أخبر أصحابه فيخرجن مجتمعات، وكل نملة تجتهد في صلاح العامة منها غير مختلسة من الحب شيئًا لنفسها دون صواحباتها.

من عجائب أمر النمل:

ومن عجيب أمرها أن الرجل إذا أراد أن يحترز من النمل لا يسقط في عسل أو نحوه فإنه يحفر حفيرة ويجعل حولها ماء أو يتخذ إناء كبيرًا ويملأه ماء ثم يضع فيه ذلك الشيء، فيأتي الذي يطيف به، فلا يقدر عليه فيتسلق في الحائط ويمشي على السقف إلى أن يحاذي ذلك الشيء، فتلقي نفسها عليه وجربنا نحن ذلك وأحمى صانع مرة طوقًا بالنار ورماه على الأرض ليبرد، واتفق أن اشتمل الطوق على نمل فتوجه في الجهات ليخرج، فلحقه وهج النار فلزم المركز ووسط الطوق، وكان ذلك مركزًا له وهو أبعد مكان من المحيط[1].

الهدهد وعجائب من حياته:

وهذا الهدهد من أهدى الحيوان وأبصره بمواضع الماء تحت الأرض لا يراه غيره.

ومن هدايته ما حكاه الله عنه في كتابه أن قال لنبي الله سليمان وقد فقده وتوعده، فلما جاءه بدره بالعذر قبل أن ينذره سليمان بالعقوبة، وخاطبه خطابًا هيجه به على الإصغاء إليه والقبول منه فقال: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ [النمل: ٢٢].

---

(١) السابق [١٦٠-١٦١].

وفي ضمن هذا أني أتيتك بأمر قد عرفته حق المعرفة بحيث أحطت به وهو خبر عظيم له شأن فلذلك قال:﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ [النمل:٢٢].

والنبأ هو الخبر الذي له شأن والنفوس متطلعة إلى معرفته ثم وصفه بأنه نبأ يقين لا شك فيه ولا ريب، فهذه مقدمة بين يدي إخباره لنبي الله بذلك النبأ استفرغت قلب المخبر لتلقي الخبر وأوجبت له التشوف التام إلى سماعه ومعرفته وهذا نوع من براعة الاستهلال وخطاب التهييج، ثم كشف عن حقيقة الخبر كشفًا مؤكدًا بأدلة التأكيد، فقال:﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾[النمل:٢٣].

ثم أخبر عن شأن تلك الملكة وأنها من أجل الملوك بحيث أوتيت من كل شيء يصلح أن تؤتاه الملوك ثم زاد في تعظيم شأنها بذكر عرشها التي تجلس عليه وأنه عرش عظيم، ثم أخبره بما يدعوهم إلى قصدها وغزوهم في عقر دارهم بعد دعوتهم إلى الله فقال:﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [النمل:٢٤].

وحذف أداة العطف من هذه الجملة، وأتى بها مستقلة غير معطوفة على ما قبلها إيذانا بأنها هي المقصودة وما قبلها توطئة لها ثم أخبر عن المغوي لهم الحامل لهم على ذلك وهو تزيين الشيطان لهم أعمالهم حتى صدهم عن السبيل المستقيم وهو السجود لله وحده، ثم أخبر أن ذلك الصد حال بينهم وبين الهداية والسجود لله الذي لا ينبغي السجود إلا له، ثم ذكر من أفعاله سبحانه إخراج الخبء في السماوات والأرض وهو المخبوء فيهما من المطر والنبات والمعادن وأنواع ما ينزل من السماء وما يخرج من الأرض، وفي ذكر الهدهد هذا الشأن من أفعال الرب تعالى بخصوصه إشعار بما خصه الله به من إخراج الماء المخبوء تحت الأرض قال صاحب الكشاف: وفي إخراج الخبء أمارة على أنه من كلام الهدهد؛ لهندسته ومعرفته الماء تحت الأرض، وذلك بإلهام من يخرج الخبء في السماوات والأرض جلت قدرته ولطف علمه ولا يكاد يخفى على ذي الفراسة الناظر

obeikandl.com

بنور الله مخايل كل شخص بصناعة أو فن من العلم في روائه ومنطقه وشمائله، فما عمل آدمي عملًا إلا ألقى الله عليه رداء عمله[١].

الحمام أعقل الطير:

وهذا الحمام من أعجب الحيوان هداية حتى قال الشافعي: أعقل الطير الحمام. وبرد الحمام هي التي تحمل الرسائل والكتب، ربما زادت قيمة الطير منها على قيمة المملوك والعبد، فإن الغرض الذي يحصل به لا يحصل بمملوك ولا بحيوان غيره؛ لأنه يذهب ويرجع إلى مكانه من مسيرة ألف فرسخ فما دونها وتنهي الأخبار والأغراض والمقاصد التي تتعلق بها مهمات الممالك والدول والقيمون بأمرها يعتنون بأنسابها اعتناء عظيمًا فيفرقون بين ذكورها وإناثها وقت الفساد، وتنقل الذكور عن إناثها إلى غيرها والإناث عن ذكورها، ويخافون عليها من فساد أنسابها وحملها من غيرها، ويتعرفون صحة طرقها ومحلها، لا يأمنون أن تفسد الأنثى ذكرًا من عرض الحمام فتعتريها الهجنة.

العناية بالحمام:

والقيمون بأمرها لا يحفظون أرحام نسائهم ويحتاطون لها كما يحفظون أرحام حمامهم ويحتاطون لها. والقيمون لهم في ذلك قواعد وطرق يعتنون بها غاية الاعتناء بحيث إذا رأوا حمامًا ساقطًا لم يخف عليهم حسبها ونسبها وبلدها.

ويعظمون صاحب التجربة والمعرفة، وتسمح أنفسهم بالجعل الوافر له ويختارون لحمل الكتب والرسائل الذكور منها، ويقولون هو أحن إلى بيته لمكان أنثاه، وهو أشد متنًا وأقوى بدنًا وأحسن اهتداء. وطائفة منهم يختار لذلك الإناث ويقولون: الذكر إذا سافر وبعد عهده حن إلى الإناث وتاقت نفسه إليهن، فربما رأى أنثى في طريقه ومجيئه فلا يصبر عنها فيترك المسير ومال إلى قضاء وطره منها وهدايته على قدر التعليم والتوطين.

---

(١) شفاء العليل [١٦٢-١٦٣].

إلف الحمام:

والحمام موصوف باليمن والألف للناس، ويحب الناس ويحبونه، ويألف المكان ويثبت على العهد والوفاء لصاحبه وإن أساء إليه، ويعود إليه من مسافات بعيدة، وربما صيد فترك وطنه عشر حجج وهو ثابت على الوفاء حتى إذا وجد فرصة واستطاعة عاد إليه.

زواج الحمام ورعاية الصغار:

والحمام إذا أراد السفاد يلطف للأنثى غاية اللطف،فيبدأ بنشر ذنبه وإرخاء جناحه ثم يدنو من الأنثى فيهدر لها ويقبلها ويزفها وينتفش يرفع صدره ثم يعتريه ضرب من الوله،والأنثى في ذلك مرسلة جناحها وكتفها على الأرض،فإذا قضى حاجته منها ركبته الأنثى،وليس ذلك في شيء من الحيوان سواه،وإذا علم الذكر أنه أودع رحم الأنثى ما يكون منه الولد يقدم هو والأنثى بطلب القصب والحشيش وصغار العيدان فيعملان منه أفحوصة وينسجانها نسجًا متداخلًا في الوضع الذي يكون بقدر حيلان الحمامة ويجعلان حروفها شاخصة مرتفعة لئلا يتدحرج عنها البيض ويكون حصنًا للحاضن،ثم يتعاودان ذلك المكان ويتعاقبان الأفحوص يسخنانه ويطيبانه وينفيان طباعه الأول ويحدثان فيه طبعًا آخر مشتقًا ومستخرجًا من طباع أبدانهما ورائحتهما لكي تقع البيضة إذا وقعت في مكان هو أشبه المواضع بأرحام الحمام، ويكون على مقدار من الحر والبرد والرخاوة والصلابة،ثم إذا ضربها المخاض بادرت إلى ذلك المكان ووضعت فيه البيض، فإن أفزعها رعد قاصف رمت بالبيضة دون ذلك المكان الذي هيأته، كالمرأة التي تسقط من الفزع، فإذا وضعت البيض في ذلك المكان لم يزالا يتعاقبان الحضن حتى إذا بلغ الحضن مداه وانتهت أيامه انصدع عن الفرخ فأعاناه على خروجه، فيبدآن أولا بنفخ الريح في حلقه حتى تتسع حوصلته علمًا منهما بأن الحوصلة تضيق عن الغذاء فتتسع الحوصلة بعد التحامها وتنفتق بعد ارتقاقها، ثم يعلمان أن الحوصلة وإن كانت قد اتسعت شيئًا فإنها في أول الأمر لا تحتمل الغذاء فيزقانه بلعابهما المختلط بالغذاء وفيه قوى الطعم، ثم

يعلمان أن طبع الحوصلة تضعف عن استمرار الغذاء وأنها تحتاج إلى دفع وتقوية لتكون لها بعض المتانة، فيلقطان من الغيطان الحب اللين الرخو ويزقانه[١] الفرخ ثم يزقانه بعد ذلك الحب الذي هو أقوى وأشد، ولا يزالان يزقانه بالحب والماء على تدريج بحسب قوة الفرخ وهو يطلب ذلك منهما، حتى إذا علما أنه قد أطاق اللقط منعاه بعض المنع ليحتاج إلى اللقط ويعتاده وإذا علما أن رئته قد قويت ونمت وأنهما إن فطماه فطمًا تامًا قوي على اللقط وتبلغ لنفسه ضرباه إذا سألهما الزق ومنعاه، ثم تنزع تلك الرحمة العجيبة منهما وينسيان ذلك العطف المتمكن حين يعلمان أنه قد أطاق القيام بنفسه والتكسب، ثم يبتدآن العمل ابتداء على ذلك النظام.

مشابهة طباع الحمام للناس:

والحمام يشاكل الناس في أكثر طباعه ومذاهبه، فإن من إناثه أنثى لا تريد إلا زوجها، وفيه أخرى لا ترد يد لامس، وأخرى لا تنال إلا بعد الطلب الحثيث، وأخرى تركب من أول وهلة وأول طلب، وأخرى لها ذكر معروف بها وهي تمكن ذكرًا آخر منها إذا غاب زوجها لم تمتنع ممن ركبها، وأخرى تمكن من يغنيها عن زوجها وهو يراهما ويشاهدهما ولا تبالي بحضوره، وأخرى تغري الذكر وتدعوه إلى نفسها، وأنثى تركب أنثى وتساحقها، وذكر يركب ذكرًا ويعسفه. وكل حالة توجد في الناس ذكورهم وإناثهم توجد في الحمام، وفيها من لا تبيض وإن باضت أفسدت البيضة كالمرأة التي لا تريد الولد كيلا يشغلها عن شأنها، وفي إناث الحمام من إذا عرض لها ذكر أي ذكر كان أسرعت هاربة ولا تواتي غير زوجها البتة، بمنزلة المرأة الحرة، ومنها ما يأخذ أنثى يتمتع بها تم ينتقل عنها إلى غيرها، وكذلك الأنثى توافق ذكرا آخر عن زوجها وتنتقل عنه، وإن كانوا جميعًا في برج واحد ومنها ما يتصالح على الأنثى منها ذكران أو أكثر، فتعايرهم كلهم حتى إذا غلب واحد منهم رفيقه وقهره مالت إليه وأعرضت عن المغلوب، وفي الحديث أن النبي

(١) أي بطعانه.

ﷺ: «**رأى حمامة تتبع حمامة فقال شيطان يتبع شيطانه**»[١] ومنها ما يزق فراخه خاصة، ومنها ما فيه شفقة ورحمة بالغة يزق فراخه وغيرها.

ومن عجيب هداها أنها إذا حملت الرسائل سلكت الطرق البعيدة عن القرى ومواضع الناس؛ لئلا يعرض لها من يصدها. ولا يرد مياههم بل يرد المياه التي لا يردها الناس؛ ومن هدايتها أيضًا أنه إذا رأى الناس في الهواء عرف أي صنف يريده وأي نوع من الأنواع ضده، فيخالف فعله ليسلم منه ومن هدايته أنه في أول نهوضه يغفل ويمر بين النسر والعقاب، وبين الرخم والبازي وبين الغراب والصقر فيعرف من يقصده ومن لا يقصده، وإن رأى الشاهين فكأنه يرى السم الناقع، وتأخذه حيرة كما يأخذ الشاة عند رؤية الذئب، والحمار عند مشاهدة الأسد.

تعاون الزوجين في شؤون المبيت:

ومن هداية الحمام أن الذكر والأنثى يتقاسمان أمر الفراخ، فتكون الحضانة والتربية والكفالة على الأنثى وجلب القوت والزق على الذكر، فإن الأب هو صاحب العيال والكاسب لهم والأم هي التي تحبل وتلد وترضع[٢].

من هداية الله للحمام:

وقال ابن الأعرابي: قيل لشيخ من قريش من علمك هذا كله وإنما يعرف مثله أصحاب التجارب والتكسب؟ قال: علمني الله مما علم الحمامة تقلب بيضها حتى تعطي

---

(١) رواه أبو داود برقم [٤٩٤٢]، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم [٣٧٢٤]، بلفظ أن رسول الله ﷺ «**رأي رجلًا يتبع حمامة**»

(٢) السابق [١٦٣-١٦٥].

obeikandl.com

الوجهين جميعًا نصيبهما من حضانتها، ولخوف طباع الأرض على البيض إذا استمر على جانب واحد(١).

ومن علم الحمامة إذا حملت أن تأخذ هي والأب في بناء العش، وأن يقيما له حروفًا تشبه الحائط، ثم يسخناه ويحدثا فيه طبيعة أخرى، ثم يقلبان البيض في الأيام ومن قسم بينهما الحضانة، والكد؟ فأكثر ساعات الحضانة على الأنثى وأكثر ساعات جلب القوت على الأب، وإذا خرج الفرخ علما ضيق حوصلته عن الطعام، فنفخا فيه نفخًا متداركًا حتى تتسع حوصلته ثم يزقانه اللعاب أو شيئًا قبل الطعام وهو كاللبن للطفل ثم يعلمانه احتياج الحوصلة، فإذا اندبغت زقاه الحب فإذا علما أنه أطاق اللقط منعاه الزق على التدريج فإذا تكاملت قوته وسألهما الكفالة ضرباه ومن علمهما إذا أراد السفاد أن يبتدئ الذكر بالدعاء فتتطارد له الأنثى قليلا لتذيقه حلاوة المواصلة ثم تطيعه في نفسها ثم تمتنع بعض التمنع ليشتد طلبه وحبه، ثم تتهادى وتتكسل وتريه معاطفها وتعرض محاسنها ثم يحدث بينهما من التغزل والعشق والتقبيل والرشف ما هو مشاهد بالعيان ومن علم المرسلة منها، إذا سافرت ليلًا أن تستدل ببطون الأودية ومجاري المياه والجبال ومهاب الريح ومطلع الشمس ومغربها فتستدل بذلك وبغيره إذا ضلت فإذا عرفت الطريق مرت كالريح(٢).

ومن عجيب أمرها ما ذكره الجاحظ أن رجلًا كان له زوج حمام مقصوص وزوج طيار، وللطيار فرخان، قال: ففتحت لهما في أعلى الغرفة كوة للدخول والخروج وزق فراخهما قال: فحبسني السلطان، فجأة فاهتممت بشأن المقصوص غاية الاهتمام، ولم أشك في موتهما لأنهما لا يقدران على الخروج من الكوة وليس عندهما ما يأكلان ويشربان، قال: فلما خلى سبيلي لم يكن لي هم غيرهما ففتحت البيت، فوجدت الفراخ قد كبرت

(١) السابق [١٦٨].

(٢) السابق [١٧٠].

ووجدت المقصوص على أحسن حال فعجبت فما لبث أن جاء الزوج الطيار، فدنا الزوج المقصوص إلى أفواههما يستطعمانهما كما يستطعم الفرخ فزقاهم فانظر إلى هذه الهداية فإن المقصوصين لما شاهدا تلطف الفراخ للأبوين وكيف يستطعمانهما إذا اشتد بهما الجوع والعطش، فعلا كفعل الفرخين فأدركتهما رحمة الطيارين فزقاهما كما يزقان فرخيهما.

كلبة ترضع طفلًا:

ونظير ذلك ما ذكره الجاحظ وغيره قال الجاحظ: وهو أمر مشهور عندنا بالبصرة: أنه لما وقع الطاعون الجارف أتى على أهل دار، فلم يشك أهل تلك المحلة أنه لم يبق منهم أحد، فعمدوا إلى باب الدار فسدوه، وكان قد بقي صبي صغير يرضع ولم يفطنوا له، فلما كان بعد ذلك بمدة تحول إليها بعض ورثة القوم ففتح الباب، فلما أفضى إلى عرصة الدار إذا هو بصبي يلعب مع جراء كلبة قد كانت لأهل الدار فلما رآها الصبي حبا إليها فأمكنته من أطبائها، فمصها وذلك أن الصبي لما اشتد جوعه ورأى جراء الكلبة يرتضعون من أطباء الكلبة حبا إليها، فعطفت عليه فلما سقته مرة أدامت له ذلك وأدام هو الطلب ولا يستبعد هذا وما هو أعجب منه، فإن الذي هدى المولود إلى مص إبهامه ساعة يولد ثم هداه إلى التقام حلمة ثدي لم يتقدم له به عادة كأنه قد قيل له هذه خزانة طعامك وشرابك التي كأنك لم تزل بها عارفًا[1].

الخفاش[2]:

وإذ قد جرى الكلام إلى الخفاش، فهو من الحيوانات العجيبة الخلقة بين خلقة الطيور وذوات الأربع وهو إلى ذوات الأربع أقرب فإنه ذو أذنين ناشزتين وأسنان ودبر

(١) السابق [١٦٥-١٦٦].

(٢) يعتبر الخفاش من الحيوانات الثديية حيث إنه يلد ويرضِّع صغاره ورغم أنه يطير لكنه يعد من الحيوانات. ويوجد من أنواع الخفافيش حوالي (٩٥٠) نوعًا، منها النوع الضحم المعروف بالثعلب الطائر ويوجد خفاش الثعلب الطائر في جزيرة غينيا بالمحيط الهادي (شمال استراليا) ويبلغ طول جناحيه حوالي ١٨٠ سم. والخفافيش ليست عمياء تمامًا

وهو يلد ولادًا[1] ويرضع ويمشي على أربع وكل هذه صفة ذوات الأربع وله جناحان يطير بهما مع الطيور.

ولما كان بصره يضعف عن نور الشمس كان نهاره كليل غيره، فإذا غابت الشمس انتشر، ومن ذلك سمي ضعيف البصر أخفش، والخفش ضعف البصر، ولما كان كذلك جعل قوته من هذه الطيور الضعاف التي لا تطير إلا بالليل.

وقد زعم بعض من تكلم في الحيوان أنه ليس يطعم شيئًا وإنما غذاؤه من النسيم البارد فقط وهذا كذب عليه وعلى الخلقة لأنه يبول وقد تكلم الفقهاء في بوله هل هو نجس؟ لأنه بول غير مأكول أو نجس معفو عن يسيره لمشقة التحرز منه.

على قولين هما روايتان عن أحمد، وبعض الفقهاء لا ينجِّس بوله، بحال، وهذا أقيس الأقوال إذ لا نص فيه ولا يصح قياسه على الأبوال النجسة لعدم الجامع المؤثر ووضوح الفرق وليس هذا موضع استيفاء الحجج في هذه المسألة من الجانبين.

والمقصود: أنه لو كان لا يأكل شيئًا لم يكن له أسنان إذ لا معنى للأسنان في حق من لا يأكل شيئًا. ولهذا لما عدم الطفل الرضيع الأكل لم يعط الأسنان، فلما كبر واحتاج للغذاء أعين عليه بالأسنان التي تقطعه والأضراس التي تطحنه.

وليس في الخليقة شيء مهمل ولا عن الحكمة بمعطل ولا شيء لا معنى له.

كما يعتقد كثير من الناس، بل إن معظمها يرى حتى في الضوء الخافت وبعضها يرى في الظلام الدامس، والخفافيش التي لا ترى تطلق أصواتًا عالية التردد ومن خلال صدى الأصوات المرتدة يمكن أن يتعرف الخفاش على موقع أي شيء أمامه بدقة بالغة، ومن العجيب أن الخفافيش تسير معًا في أسراب بأعداد كبيرة دون أن يصطدم بعضها ببعض، ولقد أجرى بعض العلماء تجربة حاولوا منها أن يركبوا إشارات رادار الخفاش بضوضاء تزيد قوتها عن تردد أصوات الخفافيش (٢٠٠٠) مرة ولكنها لم تؤثر في دقة استجابة الخفافيش لأصواتها.

(١) أي: ولادة.

وأما الحكم والمنافع في خلق الخفاش فقد ذكر منها الأطباء في كتبهم ما انتهت إليه معرفتهم حتى أن بوله يدخل في بعض الأكحال، فإذا كان بوله الذي لا يخطر بالبال فيه منفعة البتة، فما الظن بجملته؟!

ولقد أخبر بعض من أشهد بصدقة أنه رأى رخلًا وهو طائر معروف قد عشش في شجرة، فنظر إلى حية عظيمة قد أقبلت نحو عشه فاتحة فاها لتبتلعه، فبينما هو يضطرب في حيلة النجاة منها إذ وجد حسكة في العش فحملها، فالقاها في فم الحية، فلم تزل تلتوى حتى ماتت[١].

الجراد:

وهذا الجراد نثرة حوت من حيتان البحر[٢]، ينثره من منخريه، وهو جند من جنود الله[٣]، ضعيف الخلقة عجيب التركيب فيه خلق سبع حيوانات، فإذا رأيت عساكره قد أقبلت أبصرت جندًا لا مرد له ولا يحصى منه عدد ولا عدة، فلو جمع الملك خيله ورجله ودوابه وسلاحه ليصده عن بلاده لما أمكنه ذلك، فانظر كيف ينساب على الأرض كالسيل، فيغشى السهل والجبل والبدو والحضر حتى يستر نور الشمس بكثرته ويسد وجه السماء بأجنحته ويبلغ من الجو إلى حيث لا يبلغ طائر أكبر جناحين منه.

فسل المعطل من الذي بعث هذا الجند الضعيف الذي لا يستطيع أن يرد عن نفسه حيوانًا رام أخذه بلية على العسكر أهل القوة والكثرة والعدد والحيلة، فلا يقدرون بأجمعهم على دفعه، بل ينظرون إليه يستبد بأقواتهم دونهم ويمزقها كل ممزق ويذر الأرض قفرا منها وهم لا يستطيعون أن يردوه ولا يحولوا بينه وبينها.

(١) مفتاح دار السعادة(١/ ٣٨٠).

(٢) رواه ابن ماجه برقم [٣٢٢١]، وقال الألباني: موضوع.

(٣) ضعفه الألباني في الضعيفة رقم [١٥٣٣].

obeikandl.com

وهذا من حكمته سبحانه أن يسلط الضعيف من خلقه الذي لا مؤنة له على القوى، فينتقم به منه وينزل به ما كان يحذره منه حتى لا يستطيع لذلك ردًا ولا صرفا قال الله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾ [القصص: ٥-٦].

فواحسرتاه على استقامه مع الله وإيثار لمرضاته في كل حال يمكن به الضعيف المستضعف حتى يرى من استضعفه أنه أولى بالله ورسوله منه، ولكن اقتضت حكمة الله العزيز الحكيم أن يأكل الظالم الباغي ويتمتع في خفارة ذنوب المظلوم المبغي عليه، فذنوبه من أعظم أسباب الرحمة في حق ظالمه كما أن المسؤل إذا رد السائل فهو في خفارة كذبه ولو صدق السائل لما أفلح من رده[1] وكذلك السارق وقاطع الطريق في خفارة منع أصحاب الأموال حقوق الله فيها ولو أدوا ما لله عليهم فيها لحفظها الله عليهم.

وهذا أيضًا باب عظيم من حكمة الله يطلع الناظر فيه على أسرار من أسرار التقدير وتسليط العالم بعضهم على بعض وتمكين الجناة والبغاة فسبحان من له في كل شيء حكمة بالغة وآية باهرة حتى أن الحيوانات العادية على الناس في أموالهم وأرزاقهم وأبدانهم تعيش في خفارة ما كسبت ايديهم ولولا ذلك لم يسلط عليهم منها شيء.

ولعل هذا الفصل الاستطرادي أنفع لمتأمله من كثير من الفصول المتقدمة فإنه إذا أعطاه حقه من النظر والفكر عظم انتفاعه به جدًا والله الموفق.

ويحكى أن بعض أصحاب الماشية كان يشوب اللبن ويبيعه على أنه خالص، فأرسل الله عليه سيلًا، فذهب بالغنم، فجعل يعجب، فأتى في منامه، فقيل له: أتعجب من أخذ السيل غنمك؟ إنه تلك القطرات التي شبت بها اللبن اجتمعت وصارت سيلًا، فقس

(١) قال ابن عبد البر في التمهيد (٥/ ٢٩٧)، هذا حديث منكر.

على هذه الحكاية ما تراه في نفسك وفي غيرك تعلم حينئذ أن الله قائم بالقسط وأنه قائم على كل نفس بما كسبت وأنه لا يظلم مثقال ذرة.

والأثر الإسرائيلي معروف أن رجلًا كان يشوب الخمر ويبيعه على أنه خالص، فجمع من ذلك كيس ذهب وسافر به، فركب البحر ومعه قرد له، فلما نام أخذ القرد الكيس وصعد به إلى أعلى المركب ثم، فتحه، فجعل يلقيه دينارًا في الماء ودينارًا في المركب كأنه يقول له بلسان الحال: ثمن الماء صار إلى الماء ولم يظلمك.

عجائب الديك:

وفي هدايته للحيوان إلى مصالحة ما هو أعجب من ذلك ومن ذلك أن الديك الشاب إذا لقي حبًا لم يأكله حتى يفرقه، فإذا هرم وشاخ أكله من غير تفريق، كما قال المدائني: إن إياس بن معاوية مرَّ بديك ينقر حبًا ولا يفرقه فقال: ينبغي أن يكون هرمًا فإن الديك الشاب يفرق الحب ليجتمع الدجاج حوله فتصيب منه، والهرم قد فنيت رغبته فليس له همة إلا نفسه قال إياس: والديك يأخذ الحبة فهو يريها الدجاجة حتى يلقيها من فيه، والهرم يبتلعها ولا يلقيها للدجاجة.

وذكر ابن الأعرابي قال: أكلت حبة بيض مكاء، فجعل المكاء يصوت ويطير على رأسها ويدنو منها حتى إذا فتحت فاها وهمت به ألقى حسكة فأخذت بحلقها حتى ماتت وأنشد أبو عمرو الشيباني في ذلك قول الأسدي:

إن كنت أبصرتني غُيلًا ومصطلما ... فربما قتل المكاء ثعبانًا

وهداية الحيوانات إلى مصالح معاشها كالبحر حدث عنه ولا حرج[1][2].

---

(١) أي يخلطه بالماء.

(٢) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٣٨٦-٣٨٨).

* ومن عجائب الطيور التي عرفت في عصرنا ما يلي:

١- طائر الكيوي:

وهو طائر في حجم الدجاجة ولكن بيضة أنثاه (٨) أضعاف حجم بيضة الدجاجة. وهو الطائر الوحيد الذي ليس له جناحان، ويظهر هذا الطائر ليلًا بين الأشجار في الغابات ويختفي نهارًا فهو من الطيور الليلية والعجيب أن هذا الطائر لا يوجد إلا في دولة واحدة في العالم وهي نيوز يلاندا لذا فهي تتخذه رمزًا لها.

٢- الوقواق:

- الوقواق طائر من الطيور ذات العادات الغريبة.
-فهو يضع بيضه في أعشاش الطيور الأخرى، ولا يضع لبيضه عشًا كباقي الطيور.
- ويترك الوقواق بيضه في عش الطير الآخر ليرقد علي صاحب العش وحينما يفقس بيض الوقواق فإن الصغار تخرج من البيض ويظل الطائر «صاحب العش» يرعاها حتى يشتد عودها، وحينئذٍ تزحزح الصغار البيض الآخر من العش حتى يسقط وبذلك يخلو لها المكان، وتستأثر برعاية الطائر صاحب العش.
- والمفاجأة ... أن الصغار «صغار الوقواق» تكبر وتكبر حتى تصير أضخم من الطائر صاحب العش وفي النهاية يضيق العش بالطيور «صغار الوقواق التي كبرت» والطائر صاحب العش مما يضطره إلى الهجرة وترك العش للوقواق.

٣- طائر الغلموت:

- طائر الغلموت من الطيور البحرية التي تعيش بالقرب من شواطئ البحار.
- ويتغذى هذا الطائر على الأسماك.
- والعجيب أن بيضة هذا الطائر تشبه الكمثري في شكلها ولم يأت هذا الشكل عبثًا وسُدى.
- بل الحكمة من شكلها العجيب تكمن في حمايتها من التدحرج والسقوط في البحر.
- وإن حدث وزحزحت من مكانها فإنها تدور حول نفسها فقط دون أن تسقط، فسبحان الله الذي خلقها وبرأها.

٤- أبو قرن:

- هو من الطيور الاستوائية الجميلة.
- وسمي بهذا الاسم الغريب لأنه له زائدة علوية فوق منقاره شبه القرن، لذا كانت التسمية.
- ولهذا الطائر العجيب سلوك غريب، فبعد نكاحه لأنثاه يقوم بحبسها، أتدرون أين؟ ولم الحبس والسجن؟ ومتى يكون فك الأسر؟
- يقوم هذا الطائر العجيب بحبس أنثاه داخل أحد فروع الأشجار في تجويف يبني عليه جدارًا طينيًا، ويترك فيه فتحة صغيرة تستطيع منها أنثاه أن تخرج منقارها.. أتدرون لم؟

١- لكي يطعمها من هذه الفتحة.

٢- ولكي تستطيع التنفس من خلالها.

- ويستمر الأسر الغريب لأنثي الطائر العجيب حتى تضع الأنثي بيضها ثم يفقس البيض ويخرج صغارها، فحينها تقوم الأنثي بكسر الجدار «جدار الأسر» بمنقارها، ثم تخرج منه وتبني جدارًا آخر على صغارها وتترك لهم فتحة في الجدار، تطعمهم من خلالها، حتى يكبروا ويتمكنوا بدورهم من كسر الجدار والخروج منه متزاوجين، ثم مكررين لقصة الأسر الغريب في عالم عجيب.

٥- طائر الكاتب الأفريقي:

- طائر الكاتب الأفريقي من الطيور الجارحة.

obeikandl.com

- وينتمي هذا الطائر إلى عائلة النسور.
- ويعيش على صيد الثعابين والسحالي التي يقتلها بأقدامه القوية فيقضي عليها ثم يأكلها.
- والعجيب.. أن هذا الطائر رغم مقدرته على الطيران إلا أنه يفضل الجري عن الطيران.

٦- طائر البطريق:

- يعتبر طائر البطريق الذي يتميز بصدره الأبيض وظهره الأسود «أو الرمادي» هو الطائر الذي لا يطير أبدًا.
- ويعيش هذا الطائر على شواطئ البحار في المنطقة القطبية الجنوبية.
- ويمكن أن يغوص في ماء البحار إلى عمق «٨٧» قدمًا أي حوالي «٢٦» مترًا كما أنه يمكن أن يمكث تحت سطح الماء «١٨» دقيقة دون أن يتنفس.
- وتبيض أنثي البطريق بيضة واحدة، تضعها على قدمها حتى لا تلامس الأرض المغطاة بالثلوج، وتجلس فوقها القرفصاء، وإذا ما أرادت الانتقال من مكان إلى آخر، فإنها تمشي والبيضة فوق قدمها، وتبقي على ذلك الحالة مدة «٧-٨» أسابيع حتى تفقس البيضة ويخرج منها طائر البطريق الصغير.

٧- طائر الطنان... من عجائب خلق الرحمن:

- ترجع تسمية الطنان بهذا الاسم إلى أنه يزفرف بجناحيه بمعدل «٥٠-٨٠» مرة في الدقيقة الواحدة، وبذلك يُحدث طنينًا مسموعًا لذا يسمى بطائر الطنان.
- وطائر الطنان هو الطائر الوحيد الذي يطير إلى الخلف لا إلى الأمام على العكس من باقي الطيور الأخرى.

وحجم طائر الطنان صغير جدًا، وتبلغ بيضته نصف جرام فقط لذا هي أصغر بيضة في العالم.

٨- نقار الخشب:

- نقار الخشب من الطيور، حجمه كحجم العصفور الصغير.
- وسمي بهذا الاسم لأنه ينقر لحاء الخشب بمنقاره المدبب بحثًا عن دودة مختفية بداخله.
- فهو يبدأ بنقر مكان يعتقد أن الدودة بداخله، ويستمر في النقر حتى يثقب ثقبًا في لحاء الشجرة.

فإن وجد الدودة أكلها، وإلا أدخل لسانه الطويل الذي يصل طوله أحيانًا إلى ١٥ سنتمترًا في الثقب حتى يصل إلى الدودة المخفية، ويطعنها بمقدمة لسانه الذي يُشبه لسان الحية ثم يسحبها إلى فمه ويأكلها.

- فمن الذي علمه أن بلحأ تلك الشجرة دودة؟
- ومن الذي هداه إلى البحث عن رزقه وغذائه؟
- ومن الذي حباه بلسانٍ طويلٍ ملائمٍ للبحث عن طعامه؟

٩- الطائر الخياط:

- يعيش الطائر الخياط في الهند والصين وهو يشبه العصفور.

وترجع تسميته بالطائر الخياط إلى أنه يختار أحد أوراق الأشجار ثم يقوم بضم حوافها ثم يخطها معًا بمهارة بالغة باستخدام بعض الألياف النباتية.

- ولكن .. لم يفعل الطائر هذا؟

يقوم الطائر بهذا الصنيع ليعد مكانًا مناسبًا يبني فيه عشه!!

فمن الذي هداه؟!

ومن الذي خلقه وبرأه؟! إنه الله جل في علاه.

obeikandl.com

١٠- طائر الغُطَّاس :

- يعيش هذا الطائر في المجاري المائية الجبلية والشلالات ويوجد هذا الطائر في كثير من بلاد العالم.
- ويستخدم الطائر أجنحة القوية في الغوص تحت الماء، ويستطيع الوصول إلى عمق ستة أمتار تحت سطح الماء.

ويستطيع البقاء إلى مدة نصف دقيقة تحت الماء، يلتقط فيها غذاءه من الأسماك وغيرها لذا سُمي بطائر الغطاس لكثرة الغطس بالماء للحصول على غذائه.

- وهذا الطائر مزود بثنية جلدية متحركة فوق أنفه تغطيه عند نزوله الماء، وتحميه من دخول الماء فيه، كما أن لعينه غشاء يحميها من الماء عن الغطس.

١١- النعامة:

- تزن بيضة النعامة حوالي ٦ كيلو جرمات.
- وتبلغ سرعة النعامة في جريانها ٤٠ كيلو مترًا في الساعة ورغم أنها تبدو هادئة وديعة إلا أن ركلتها بأحد ساقيها قوية جدًا لدرجة أنها يمكن أن تكسر ساق الإنسان.
- ويقال إنها تدفن رأسها في الرمال بحثًا عن البيضة التي كانت قد باضتها وطمرتها في الرمال إلى أن تفقس، ثم نست مكانها.
- وإذا أبصرت النعامة خطرًا على بعد فإنها تنام على الأرض وتمد عنقها على استقامة أمامها، وتراقب العدو في حذر، فإذا اقترب العدو منها أطلقت ساقيها للرياح وانطلقت هاربة مسرعة.

(هذه المعلومات منتقاة ومختصرة من «الموسوعة الذهبية»[٣٩٤-٤٠٤]).

obeikandl.com